إهداء

إلى روح والدي المشمولة بعفو اللّه في عليين:
إن الغرس الطيب لا يضيع هباء!
إلى أمي الغالبية، التي ظمئت حتى نرتوي، وشابت حتى نكبر ونكون! دعواتي لها بدوام الصحة والسعادة وحسن الخاتمة..
إلى سائر إخواني وأخواتي.. محبة وأملا في أن يجتمع الشمل وتتحقق بعض الأماني..
إلى زوجتي، عرفانا لصبرها وتقديرا لحبها..
وإلى إبني آدم الذي أضفى وجوده معاني جديدة على حياتي..
إلى جميع أصدقائي وأساتذتي..
أهدي هذا الكتاب

تقديم

تنبع أهمية هذا الكتاب المتميز من طبيعة الموضوع الذي يتناوله وهو موضوع "التحديث السياسي في الفكر العربي المعاصر .. برهان غليون نموذجا". وذلك أن مؤلف الكتاب الأستاذ عبد السلام محمد طويل يتناول في معرض تفكيكه العميق لمفهوم التحديث السياسي تحليل جملة إشكاليات تفرض نفسها بقوة على الساحة العربية، من قبيل إشكالية الحداثة والموقف من التراث، والعلاقة بين الديني والسياسي، والدولة وخصائصها، وأخيرا إشكالية الديمقراطية، ويزيد في أهمية صدور هذا الكتاب عاملان أساسيان:

العامل الأول: يرتبط بتوقيت الإصدار، حيث يأتي الكتاب في وقت يحتدم فيه النقاش حول فشل الدول العربية في أداء وظائفها بما في ذلك وظيفتها الأهم وهى حماية الاستقلال، وهو نقاش أثاره في الأذهان سقوط واحدة من أعرق العواصم العربية في قبضة الاحتلال وتفكك مؤسسات الدولة فيها في ساعات. الأمر الذي كان لابد أن يمد خط التفسير بين تسلط الدولة من جهة وافتقادها الشرعية السياسية من جهة أخرى، ويزيد في الإحساس بوطأة مثل هذا التسلط ما يؤكد عليه دكتور برهان غليون الذي يخضع فكره الحداثي للتحليل في الكتاب موضع التقديم، من أن أزمة الدولة العربية المعاصرة لا تنحصر في احتكار نخبتها الحاكمة السلطة المطلقة أو شبه المطلقة، ولكن، وهذا هو الأهم، قيام تلك النخبة على خدمة مصالح شديدة الخصوصية والضيق تنتمي أحيانا لقبيلة وأخرى لإقليم وثالثة لطائفة دينية أو مذهبية، الأمر الذي يعني تهميش قطاعات أوسع من المواطنين وإبعادها عن

حيز المشاركة السياسية. وفي الوقت الذي أصبح مطلب التحديث من آماد مختلفة بعضها يقدر بعقود، فإن آلية إنجاز التحديث، وفي القلب منه، التطور الديمقراطي تظل موضع تجاذب بين التيارات السياسية المختلفة فيما يمكن وصفه بجدل الداخل والخارج، أو بثنائية التغيير المفروض. ومن جانبه فإن برهان غليون (والكاتب يعضده في ذلك) ينحاز إلى التطوير من الداخل، ثقة في أن آلية الحوار قادرة على أن تمثل رافعة لعملية الإصلاح، هذا مع العلم بأن غليون قليل الثقة في رغبة النخبة السياسية في التحاور مع المعارضة، الأمر الذي يجعل نطاق الحوار بهذا المعنى يتحدد بالقوى الاجتماعية والأهلية، بحيث يستعيد المجتمع روح المبادرة. وبطبيعة الحال يمكن الاختلاف مع هذا الطرح على أساس أن قوى المجتمع المدني نفسها قد لا يكون لها برنامجها الديمقراطي أو ثقافتها الديمقراطية، أو قد تكون من الضعف بفعل اختراق النخبة لها بحيث لا تملك قوة التغيير وربما لا تملك حتى إرادته. لكن في كل الأحوال، يبقى طرح التغيير من الداخل هو الأساس مع احتمال التنويع في آلياته وأدواته. وهنا تبدو أهمية الجزء الخاص بعلاقة الدولة بالمجتمع المدني في الكتاب موضع التقديم.

العامل الثاني: الذي يبرر الاحتفاء بالكتاب يرتبط بأنه يتناول المشروع الفكري لأحد أبرز المتخصصين في النظم السياسية المقارنة على مستوى الوطن العربي، وأحد أكثر المهتمين بقضايا التطور الديمقراطي، الأمر الذي يكسب تحليل فكره السياسي أهمية خاصة. يضاف إلى ذلك أن كون برهان مثقفا يجمع بين ثقافتين هما الثقافة العربية من جانب والثقافة اللاتينية (والفرنسية تحديدا) من جانب آخر فإن هذا يرفد فكره بروافد معرفية تسهم في إثرائه. ومع ذلك فإن ظاهر الكتاب وإن كان بحثا في فكر غليون إلا أن جوهره ينطوي على مقاربات لأفكار نخبة أخرى من المثقفين العرب ومقارنات معهم فنقرأ في تناول مفهوم الدولة أين التقى غليون وأين تمايز عن فكر عبد الله العروي أو نزيه ناصف الأيوبي، ونجد في تحليله إشكالية التحديث إحالات إلى فكر مسعود ضاهر وخبرته العميقة بالنموذج الياباني في النهضة، ونجد في تشريحه لأزمة الديمقراطية في الوطن العربي بعض تأثر بكتابات هشام شرابي عن البنى البطريركية للدول العربية (بالإضافة إلى اجتهادات أسماء أخرى كمحمد عابد الجابري وعلي أومليل، ومحمد سبيلا وطه عبد الرحمن، وحسن حنفي، ومحمود أمين العالم،وطارق البشري، ورضوان السيد، وسمير أمين، وعزيز العظمة، وغسان سلامة، وفؤاد مرسي، وفهمي جدعان، ومحمد جابر الأنصاري، ومنير شفيق،وهشام جعيط، ووجيه كوثراني، وإيهاب حسن وحليم بركات، وخلدون حسن النقيب، وطاهر

لبيب، وعبد الله النفيسي، وعبد الإله بلقزيز، وعماد الدين خليل، ومحمد ضريف..)

وتبقى كلمة أخيرة تختص بمؤلف هذا الكتاب، والأخير هو تطوير لأطروحة الماجستير التي قام بإعدادها تحت إشرافي. والواقع أن المؤلف يقدم نموذجا للباحث الذي لا يعتنق الرائج من الأفكار، إنما ينحت من فكره ما يراجع به الأفكار السّيارة ويقف منها موقف الناقد وأحيانا المضيف. وهو لا يتورع عن الخوض في القضايا النظرية الخالصة وهى الأقل اجتذابا لأمثاله من الشباب أخذا بالأحوط. وهو قارئ دؤوب للفكر الغربي بشكل عام ولنتاج مدرسة فرانكفورت بوجه خاص، على نحو يسمح له بتجديد وعائه المعرفي وتنويع مصادره. وعلى الجملة فإن قارئ هذا الكتاب أحسبه سيخلص إلى نتيجة بعد فراغه من قراءة آخر صفحاته هى أنه أمام كتاب بالغ الأهمية لباحث ربما لم يسمع به من قبل ولكنه واعد.

د. نيڤين مسعد